

نظرية كولبرج في نمو التفكير الأخلاقي

د. حسين عبدالفتاح الغامدي

تعتمد نظرية كولبرج Kohlberg (Colbey et al., 1983, 1987; Kohlberg, 1958, 1969, 1980, 1981) في نمو التفكير الأخلاقي Moral reasoning أو الحكم الخلفي Moral Judgment إلى درجة كبيرة على نظريات بياجيه Piaget (1929; 1932) في النمو المعرفي Cognitive Development بصفة عامة والنمو الأخلاقي Moral Development بصفة خاصة. ووفقا لنظرية بياجيه (1929) فإن النمو المعرفي يمثل تغيرا نوعيا في البنية المعرفية وبالتالي في نمط التفكير كنتيجة للعمليات المتتالية من انعدام التوازن و التوازن والنتيجة أساسا عن التفاعل المستمر بين العوامل البيولوجية و البيئية المتغيرة. مما يدفع إلى انحسار تركز الفرد حول ذاته من خلال أربع مراحل يتحول فيها النمو من نمط غير منطقي في المرحلتين الأولى والثانية إلى نمط من التفكير المنطقي العياني في المرحلة الثالثة ثم التجريدي في المرحلة الرابعة. و على هذا الأساس طور بياجيه Piaget (1932) نظريته في نمو التفكير الأخلاقي لدى الأطفال ، حيث توصل من خلال ملاحظته ودراساته الإكلينيكية لسلوك و أحكام الأطفال إلى تحديد نمطين للتفكير الأخلاقي هما أخلاقيات التبعية للسلطة والواقعية الأخلاقية Heteronym and moral realism و الأخلاقية المستقلة Autonomous Morality ، حيث يتسم تفكير الطفل في هذه المرحلة بالتمركز حول الذات، مما يدفعه إلى ربط الأحكام الأخلاقية بقوانين السلطة معتقدا حتميتها وحتمية وموضوعية العقاب المترتب على كسرها. في حين تتحسر درجة تركز الفرد حول ذاته وتزداد قدرته على اعتبار وجهات النظر المختلفة والنظر إلى القضايا من زواياها المختلفة مما يعني فهما جديدا للعدل والأخلاق يقوم على النسبية.

ولقد طور كولبرج Kohlberg نظريته في نمو التفكير الأخلاقي معتمدا بشكل أساسي على فكر بياجيه ، إذ يمثل النمو المعرفي من وجهة نظر كولبرج (Colbey et al., 1987) شرطا ضروريا غير كاف لنمو التفكير الأخلاقي. وبطريقة مشابهة لوجهة نظر بياجيه اعتمد كولبرج على مبدأ العدالة كمبدأ قادر على توفير قاعدة لفهم الأحكام الأخلاقية عالميا، حيث يسير التفكير الأخلاقي من التوجه الأخلاقي (أ) المرتبط بالمنفعة ثم المعيارية إلى التوجه الأخلاقي (ب) المرتبط بالعدالة والكمال (Walker, 1989). ولقد خرج كولبرج Kohlberg من دراساته المتعددة بتحديد ثلاثة مستويات أساسية لنمو التفكير الأخلاقي يحتوي كل منها على مرحلتين. وتعتبر كل مرحلة من هذه المراحل عن تغير نوعي في البنية المعرفية وإعادة لتنظيمها فتكون وحدة بنائية معرفية مختلفة عن سابقتها حيث تكون أكثر تركيبا وأكثر اتساقا مع معيار النضج أو الكفاية الأخلاقية. يمكن إيجاز خصائصها الأساسية فيما يلي:

المستوى الأول: أخلاقية ما قبل العرف The Pre-Conventional Morality:

يقع الأطفال وبعض من المراهقين ونسبة كبيرة من الجانحين والمجرمين في هذا المستوى، والذي ترتبط فيه أحكام الفرد الأخلاقية بالالتزام بالقواعد الاجتماعية المحددة لما هو مقبول أو مرفوض، وذلك من خلال القوة الخارجية التي تفرضها هذه القواعد و النتائج المادية السارة أو غير السارة المترتبة عليها. ويشمل هذا المستوى مرحلتين فرعيتين هما:

المرحلة الأولى: أخلاقية العقاب والطاعة Punishment and Obedience Morality: يقع غالبية الأطفال تحت سن عشر سنوات في هذه المرحلة كنتيجة لتركزهم الشديد حول ذواتهم، مما يدفع بهم إلى ربط الأحكام الأخلاقية بقواعد السلطة الخارجية وما يترتب على سلوك الفرد من ردود أفعال مادية لمن يمثل السلطة. فالصحيح أو المقبول هو ما تتيب عليه السلطة والخطأ أو غير المقبول هو ما تعاقب عليه السلطة. ولذلك يعتبر الفرد طاعة السلطة قيمة أخلاقية في حد ذاتها لا لأنه على دراية بأهمية القيم الأخلاقية والاجتماعية التي تحميها هذه القواعد، بل لأنها تجنبه التعرض للعقاب. ومن الأمثلة على الاستجابات التي تعكس نمط التفكير في هذه المرحلة الاستجابات التالية على بعض مفردات مقياس كولبرج للتفكير الأخلاقي (MJJ):

- "يسرق. إذا تركت زوجتك تموت فسوف تقع في مشكلة. وتتهم بعدم إنقاذها حتى لا تصرف النقود، وسوف يقبض عليك وعلى الصيدلي بسبب موت زوجتك.
- لا يسرق. إذا نجوت فستبقى خائفا من أن تقبض الشرطة عليك في أي لحظة". (Kohlberg, 1981, p. 52)

المرحلة الثانية: أخلاقية الفردية والغائية النفعية وتبادل المصالح Individualism, Instrumental Purpose and Exchange Morality:

ترتبط الأحكام الأخلاقية بما يشبع عمليا حاجات الفرد نفسه، وحاجات الآخرين إذا كان إشباعها ضرورة لإشباع حاجاته. ولهذا فإن الفرد ينظر إلى العلاقات الإنسانية من وجهة نظر نفعية إذ يفهمها على أساس تبادل المنافع. وانطلاقا من هذا الفهم تظهر عناصر العدالة والتقسيم العادل، إلا أنها تفهم من وجهة نظر مادية أو عملية تبادلية وذلك تبعا لقانون "خذ وهات"، وليس على أساس تطبيق مبدأ العدالة لتحقيق لعدالة نفسها. وفيما يلي أمثلة من استجابات الأفراد في هذه المرحلة.

- "يسرق. إذا قبض عليك فسوف تعيد الدواء، ولن تأخذ حكما كبيرا. لن يهملك أن تبقى في السجن وقتنا قصيرا إذا كنت ستجد زوجتك عندما تخرج.
- لا يسرق. قد لا يسجن مدة طويلة إذا سرق الدواء، ولكن زوجته يمكن أن تموت قبل أن يخرج، لذلك فالسرقة لم تفده كثيرا. لا يجب أن يلوم نفسه. ليس ذنبه أن لديها سرطان". (Kohlberg, 1981, p. 52)

المستوى الثاني: أخلاقية العرف والقانون Conventional Morality:

يقع كثير من المراهقين ونسبة كبيرة من الراشدين في هذه المستوى. و تمثل أخلاقيات العرف نقلة كيفية من الذاتية إلى الاجتماعية في التفكير الأخلاقي، حيث ترتبط أحكام الفرد الأخلاقية بالمحافظة

على السلوك المتوقع منه، إذ يقوم تفكيره على أساس فكر المجموعة. و يشمل هذا المستوى مرحلتين هما:

المرحلة الثالثة: أخلاقية التوقعات المتبادلة، العلاقات، والمسايرة Mutual Interpersonal Expectation, Relationships, and Conformity Morality: يصبح الفرد أكثر إدراكا لحاجات الآخرين وانفعالاتهم ولتوقعاتهم منه، كما يصبح أكثر إدراكا لارتباط قبولهم له بسلوكه تجاههم، ولتحقيق ذلك يميل الفرد في هذه المرحلة إلى القيام بما هو متوقع منه، كما يصبح للقصد أهمية للمرة الأولى ولهذا توصف أخلاقياته بأنها (أخلاقية الإنسان الطيب) فالفعل الأخلاقي هو الفعل الذي يقصد به إسعاد أو مساعدة الآخرين ويكون مقبولا منهم. ومن الاستجابات التي تعكس نمط تفكير الأفراد في هذه المرحلة الاستجابات التالية:

- "يسرق. لن يرى أحد أنك سيئ إذا سرقت الدواء، ولكن عائلتك ستري أنك لست إنسانيا إذا لم تفعل، ولن تستطيع النظر في وجه أحد مرة أخرى.
- لا يسرق. ليس الصيدلي فقط من سينظر إليك كمجرم. كل الناس سينظرون إليك كذلك. بعد أن تسرقه ستشعر بمشاعر سيئة لأنك جلبت العار للعائلة ولنفسك. لن تستطيع أن تقابل أي أحد بعد ذلك" (Kohlberg, 1981, p. 52)

المرحلة الرابعة: أخلاقية النظام الاجتماعي والضمير Social System and Conscience Morality: تمثل هذه المرحلة نقلة كيفية في التفكير الاجتماعي الأخلاقي حيث ترتبط الأحكام الأخلاقية فيها بالنظرة القانونية لما هو مقبول أو مرفوض، فالصواب يرتبط بطاعة القانون طاعة مطلقة، وكسره لأي سبب يعتبر سلوكا غير مقبول بصرف النظر عن الضرورات الملحة والحاجات الفردية، إلا أن أخلاقيات القانون في هذه المرحلة تختلف تماما عن أخلاقيات السلطة في المرحلة الأولى والتي يظهر الفرد فيها التزاما بقواعد السلطة خوفا من العقاب، حيث أن المبرر للالتزام بالقانون في هذه المرحلة يرتبط بإدراك الفرد لأهميته في الحفاظ على النظام الاجتماعي من الانهيار. و من الأمثلة على استجابات الأفراد في المرحلة الرابعة ما يلي:

- "يجب أن تسرقه. إذا لم تفعل شيء فسوف تترك زوجتك تموت. إنها مسئوليتك إذا تركتها تموت. يجب أن تأخذ الدواء بنية الدفع للصيدلي فيما بعد.
- لا يسرق. شيء طبيعي أن يرغب هينز Hinz في إنقاذ زوجته، ولكنه دائما خطأ أن تسرق. إنه يدرك أنه يسرق، ويسرق دواء ثمين من الرجل الذي صنعه". (Kohlberg, 1981, p.50)

المستوى الثالث: مرحلة ما بعد العرف والقانون The Post-Conventional Morality:

قلة من الأفراد يمكن أن يحقق هذا المستوى. وفيه تظهر محاولة واضحة لتحديد واتباع القيم والمبادئ الأخلاقية الإنسانية بصرف النظر عن مدى ارتباطها بالقانون والعرف الاجتماعي. ويشمل هذا المستوى مرحلتين هما:

المرحلة الخامسة: أخلاقية العقد الاجتماعي والحقوق الفردية Social Contract and Individual Rights

Morality : يصل قليل من الأفراد إلى هذه المرحلة والتي يتمكن الفرد فيها من إدراك نسبية القيم والحاجات الفردية، مما يعني تطور في نظريته للقانون لا كقواعد جامدة للمحافظة على النظام الاجتماعي فقط ولكن كقواعد متفق عليها كعناصر لعقد اجتماعي بين الأفراد لحماية الجميع، ومن هذا المنطلق ترتبط أحكام الفرد الأخلاقية بقيمه الشخصية المرتبطة بهذا الفهم الجديد لمعنى القانون القائم على احترام الحقوق الفردية والاجتماعية وتحقيق العدالة الاجتماعية. هذا يعني إمكانية تغيير هذه القواعد عند فشلها في تحقيق العدالة للجميع. ومن الأمثلة على استجابات الأفراد في هذه المرحلة ما يلي:

- "يسرق. القانون لم يوضع لهذه الظروف. أخذ الدواء في هذه الحالة ليس صحيحا، ولكنه سلوك له ما يبرره.
- لا يسرق. لا يمكن لك أن تلوم تماما أي شخص على السرقة في مثل هذه الحالة، ولكن الظروف الشديدة لا تبرر فعلا اخذ القانون في مصلحتك. لا يمكن أن نترك كل شخص يسرق عندما يكون يائسا. الغاية يمكن أن تكون جيدة ، لكن الغاية لا تبرر الوسيلة." (Kohlberg, 1981, p.50)

المرحلة السادسة: أخلاقية المبادئ العالمية (الإنسانية) Universal Ethical Principles Morality: ندرة من

الأفراد يمكن له تحقيق هذه المرحلة، مما دفع بكولبرج Kohlberg (1984) إلى اعتبارها مرحلة افتراضية ترتبط فقط بمبادئ بعض النماذج النادرة، حيث ترتبط أحكام الفرد الأخلاقية فيها بمبادئ أخلاقية مجردة ذاتية الاختيار Self-chosen ethical principles ترتبط بالفهم المنطقي والعالمية والضمير، مما يعني النظر للعدالة والمساواة والتبادلية وحقوق الأفراد كمبادئ إنسانية عامة تعنى باحترام حقوق الإنسان لإنسانيته دون اعتبار لأي مؤثرات أخرى. ومثالا على استجابات الأفراد في هذه المرحلة الاستجابات التالية:

- "يسرق. لأنه في وضع يجعله أمام موقف الاختيار بين السرقة أو ترك زوجته تموت. في الحالة التي يتوفر فيها الاختيار، أخلاقيا تكون السرقة مقبولة. يجب أن يتصرف من منطلق مبدأ حفظ واحترام الحياة".
- لا يسرق. يواجه هينز بقرار اعتبار الناس الذين يحتاجون الدواء كزوجته. لا يجب أن يتصرف هينز من منطلق مشاعره نحو زوجته، بل بالنظر إلى قيمة حياة كل المحتاجين". (Kohlberg, 1981, p. 51)